تقديـــــــم

أحمد بهاء الدين شعبان

هذا كتابٌ مهم، بل بالغ الأهمية!.

وهـــو واحدٌ من أكثر المراجع، التى توفرت على قراءتها فى العقود الأخيرة، إلماماً بالقضية الـــتى يتناولها بالتشـــريح والتحليل، وهو كتابٌ لا يصلُح فى تناوله أن يُقرأ قراءة المُســـتَخِفِ الكســـول، وإنما يحتـــاج ـ لكى نتابعه، ونحيط بأعماقه وأبعاده، ونُلـــم بأحداثه ووقائعه ـ أن نقـــرأه قراءة اليقظ المُتَنبِّه، وأن نطالعه مُطَالعة الدارس المتعمق، فهو كتابٌ يُقرأ لكى يُفهم، لا لكى يُسَلِّى، وليُجيب على العديد من التساؤلات المُعَلَّقة، المطروحة، لا لكى يُغلق بعد تصفحه، وينتهى أمره !.

كمـــا أنه، ككل الكتب المهمة فى التاريخ، والتى شـــكّلت الوعى الإنســـانى، يَطرح على القارئ، العديد من الأســـئلة الجديدة، وربما المقلقة، قدر مايُجيب على غيرها، ويكسر «التابوهات» السياســـية المحظورة، ويُفَاجِئَهُ برؤىً قد تصدمه، وخاصةً بالنسبة لأمثالنا، من الذين تابعوا، عن بُعد، ويتابعون، ماحدث، ويحدث، داخل هذه المنطقة المؤثرة أشد التأثير، فى أحوالنـــا، وفى البيئة المحيطة، والكون: روســـيا، فى علاقتها بأوطاننـــا، وإقليمنا، وعالمنا، امتثالاً لشروط الظروف الجيوسياسية الحاكمة، وهو الموضوع محل الدرس، ومحط البحث هنا.

ولا ترجع أهمية هذا الكتاب إلى حجمه الكبير، البالغ نحو سبعمائة وخمسين صفحة، بمـــا يقترب مجموع كلماته من ربع مليون كلمة، وحســـب، وإنما، وأساســـاً، تعود إلى جِدة ما يطرحه من رؤى، وجَدِّية ما يســـتعرضه مـــن أفكار، وإلى عمق ما يقدمه من معلومات، مســـتقاة من مراجع رفيعة المســـتوى، ومن الاطلاع المكثف على وثائق نادرة، وبالركون إلى معارفَ مُتَشَـــعِّبة، مبنيّة على الخبرة العملية المباشـــرة، منحت الكاتب دراية عميقة بموضوع البحث، ودُربة لازمةٍ بمتاهاته ومســـالكه، فضلاً عن مشاركةٍ عن كَثَب، فى رؤية أو متابعة، أو صناعة العديد من وقائعه، وهو أمرٌ بالغ الضرورة للقارئ العربى، الذى لا يمتلك مسارات موثوقة للمعرفة بهذا الشـــأن، بـــل أن بعضهم يتلقى معلوماته عـــن دقائقها وتطوراتها، من مصادرٍ فيها غير الموضوعي أو المُغرض !.

و "**أليكســى فاســيليف**" صاحب هذا الســفر المميز، الذى اختار له عنواناً شاملاً: "من لينين إلى بوتين: روسيا فى الشرق الأوسط والأدنى"، ليس غريباً لا عن الموضوع، ولا عن الموقع، ولا عن القضية، ولا عن أبطالها والفاعلين الرئيسيين فيها.

فهو مستشرقٌ كبير، ومفكرٌ سياسى رفيع المقام، مُتبحرٌ فى الشئون المصرية والسعودية، وعالمٌ فى أكاديمية العلوم الروسية، عمل كرئيس فخرى لمعهد الدراسات الأفريقية، ورئيس لمركز الدراسات الحضارية والإقليمية بأكاديمية العلوم الروسية، وهو عضوٌ بـ "مجلس الأمن الروسى"، ورئيسٌ لتحرير مجلة رصينة متخصصة، هى مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، وعمل لفترة كمبعوث خاص لرئيس الدولة الروســية فى المنطقة، وله عــدد كبير من المؤلفات التى غطت أوضاعها، وواكبت تطوراتها بالبحث والتحليل، منها: "مصر والمصريون"، و النزاع فى الشــرق الأوسط، و«تاريخ المملكة العربية الســعودية»، و«روســيا فى الشرق الأوسط والأدنى، و «من سياسة رُسل السلام إلى البرجماتية»، و «الملك فيصل: شخصيته وعصره و إيمانه»، وغيرها.

توفر صفحات هذا الســفر الجامع، الذى بين أيدينا، استعراضاً بانورامياً شديد الثراء، يُقــدم للقارئ صورة إجمالية عن عوامل، وملامــح، تراجيديا صعود وهبوط إمبراطورية كبرى، هى «الإتحاد الســوفيتي»، الذى كان يبسط نفوذه المادى والمعنوى على مساحة شاسعة من الأرض، ويُهيمن أيديولوجياً على فكر ووعى مئات عديدة من ملايين البشر، ويلعب دوراً لا يمكن تجاهله، فى تقرير شئوون العالم، ويُقارع القوة العظمى الأخرى المنافسة: الولايات المتحدة الأمريكية، ويزاحمها على مواقــع الصدارة... ثم مالبث، للناظرين من خارجه، أن اندثر، أو، حسب التعبير الماركسى الشهير، «إضمحل»، حتى التلاشى، فى واحدة من الأحداث اللافتة الكبرى فى التاريخ البشرى، والتى ستظل محل بحث وتدقيق العلماء والمعنيين، إلى فترات طويلة قادمة.

****

ولأن تقــديم قــراءة تفصيلية لهذا الكتاب القيِّم، بما احتوى من أفكار، وماطرحه مؤلفه من رؤى ومواقف، يبدو أمراً مســتحيلاً فى حدود المســاحة المحدودة لمقدمة كتاب، وأمرٌ غير مضمون النجاح، فســأكتفى هنا بتقديم «إضاءة» دالة على مجموعة من النقاط المركزية، التى وجدت من قراءة هذا العمل وجوب ألا تمر مرور الكرام، وضرورة الوقوف عندها، لطرح ثلاثة ملاحظات عليها، اعتقاداً منى بأهميتها، ومحوريتها، فى العمل كله.

الملحوظـة الأولـى، أن الكاتب ينطلق من نظرة ناقدة متحفظـة، أو لنقل معترضة رافضة، للتجربة الشيوعية، التى مرت بها روسيا، منذ انتصار الثورة الاشتراكية الكبرى، (أكتوبر 1917)، وحـتى قُيِّضَ لها الزوال مع بزوغ سـنوات العقد الأخير مـن القرن الماضى، فهو يراها – عدا فترة محدودة هى سـنوات حكم الرئيس الأسبق «نيكيتا خروشوف» – سنوات جدب، ومعاناة، وتَخَبط، واسـتنزاف، وتبديد لطاقات وثروات الشعب الروسى، التى أُهدرت إهداراً، (خاصةً فى ظل «المرحلة الستالينية»، وفترات الجمود التى وسمت عصر «بريجينيف»)، فى محاولة، كان محكوم عليها بالفشل، تبغى تحقيق برامج مثالية، وإنفاذ تصورات «رسالية»، تحـوى، كما يرى المؤلف، «كَمَّاً ضخماً من الأفكار العدمية الرافضة للواقع»، وتسـعى إلى نشـر شـعاراتها «الراديكالية المتطرفة التى تخلب العقول والقلوب، وتُسكر الألباب»، ومنها «السلام للشـعوب»، و «الأرض للفلاحين»، و «الخبز للجوعى»، و «المصانع للعمال»، جازماً أن الممارسـات العملية على أرض الواقع « لم تشـهد احـترام أى من تلك البنود، أو الالتزام بها»، «منذ حمل البلاشفة إلى الشعوب المُعذبة والغاضبة فكرة رسالة النجاة والإنقاذ، وقدمـوا أنفسـهم كونهم مملكة الرب علـى الأرض، والتى مُنحت إسمـاً جديداً غير معروف وغامضاً، وهو «الشـيوعية»، ... وأصبحت تلك الموجة الشـاملة ومتعددة الجوانب، والتى تعمل تحت شـعار الفكرة والرسالة عنصراً أساسـياً مكوناً فى النظام الجديد، جنباً إلى جنب بجوار آلة القمع والاضطهاد»، (ص: 28).

ومن موقع المُراقبُ الخارجى المهتم، ومن منظور مختلف قليلاً عن منظور الكاتب، وإن كان شديد الاحترام لتاريخه الكبير، وجهده، وعمقه، وإخلاصه، ومتفهماً لدواعيه، (فـ «ليس مـن رأى كمن سمع»، أو قرأ)، يُخَيَّلُ إلىَّ، أن إصدار هذا الحكم النهائى الباتر، وإطلاقه على وجه التعميم، وتلخيص نتاج نحو ثلاثة أرباع القرن من تاريخ روسـيا وشعبها، باعتباره باطل وقبض ريح، ولا يعدو مسـتنقعاً من الوهم والقهر، وبما ينزع عن هذه الحقبة المهمة من تاريخ روسـيا والعالم، كل فضيلـةٍ أو إنجاز، ربما لا يضع فى الاعتبار الظـروف الموضوعية الصعبة الحاكمة، وقتئذ، والتى سـاهمت فى إعطاء هذا الانطبـاع، ومنها حداثة التجربة، وغياب أى مرجعية عمليةٍ، أو مَسـطَرة مُجربة للقياس والتعديل، نظراً لكونها التجربة الأولى للإنسـانية فى هذا المضمار: السير باتجاه الاشتراكية والشيوعية!.

ولعلـى أرى، أيضـاً، أن جانبـاً ممـا وقعت فيه هـذه التجربة من أخطـاء، أو حتى خطايـا، وبعضها فادحٌ لا معنى لتبريره، مرجعه بالأسـاس، تردى الأوضاع العامة لروسـيا،

الفقيرة والمتخلفة، آنذاك، والتى قُيِّضَ لها أن تكون موئلاً لأول تجربة من هذا النوع، فضلاً عن الظروف المعقدة، التى دُفعت إليها روسيا، دفعاً، بُعيد وصول البلاشفة إلى السلطة، من القوى المضادة فى الداخل وجيوش التدخل الإمبريالية من الخارج، التى تنادت لوأد التجربة الجديدة فى المهد بالعدوان السافر. إذ ماكانت القوى الرأسمالية المعادية لهذا المشروع، والتى تدرك مضامينه ومخاطره، تقبل بأن ترى منافسـها أو خصيمها، أو بالأدق، عدوها ونقيضها، يرعى فى هذه البقعة المهمة من العالم، وينشـر دعوته فى المعمورة كلها، وبما يهدد مصالحها ونهبها، ثم تنتظر عليه حتى تقوى شوكته، ويصعب مواجهته!.

وعلى الرغم من أن البروفيسور «أليكسى»، يتحفظ فى كتابه، وباستمرار، على تغليب الدوافع «الأيديولوجية» على المواقف «الموضوعية»، فليسـمح لى أن أبدى خشـيتى أن هذا الموقف كان موقفاً «أيديولوجياً»، من هذه التجربة الكبيرة، بنجاحاتها وإخفاقاتها، «العظيمة المجد والأخطاء»، على حد تعبير الشاعر «محمد مهدى الجواهرى»، والتى يكاد لا يرى فيها إيجابيةً تُذكر، مع أنها، وبشـهادة حتى ألد أعدائها، قد طوَّرت الأوضاع الاقتصادية والمعاشية لعشـرات الملايين من المواطنين الروس الفقراء، ونشرت المعرفة والفن والثقافة، وحدَّثت القيم والمفاهيم، وقفزت بالتطور العلمى والتكنولوجى إلى أجواز الفضاء، ونقلت روسـيا من وهاد التخلف إلى تخوم التقدم، وخلقت واقعاً عالمياً جديداً، وقدَّمت خدمةً جليلةً للإنسـانية بأن سـاعدت شـعوباً عديدة ، ومنها شـعوبنا، على أن ترى ضوءَ النهار، وأن تشق طريقها إلى المستقبل.

ولعلنا، فى عالمنا العربى، لازلنا مدينين للحكم السـوفيتى السـابق، بأن سارع ، بمجرد الوصول إلى السلطة، إلى كشف تفاصيل اتفاقية «سايكس ـ بيكو» السرِّية، التى تم بموجبها، تقسـيم واقتسام أراضى الإمبراطورية العثمانية المتداعية، تركة «الرجل المريض»، عام 1916، فمزقت أوطاننا إرباً !.

ويدين الكاتب الاتحاد السـوفيتى لأنه «من أجل الترويج لتفسـير التعاون مع العرب، اختار، (قادته يعنى)، أن يتجاهلوا حقيقة أن **أسـاس الصراع العربى الإسـرائيلى فى كونه صراع بين قوميتين وبين شـعبين، الإسرائيلى والفلسـطينى، على الأرض**، (ص: 90)، وهو فهم منافٍ للمنطق، وللواقع، فلا يمكن للدين أن يُنشـئ قومية، وتجميع أشـتاتاً يهودية من شتىً الأصقاع، ومن مئات الدول والجنسيات والأعراق، واصطناع دولةً لها، وفرضها بقوة القهر، اسـتناداً إلى مساندة الدول الاستعمارية والإمبريالية، لحماية مصالحها فى بلادنا، وطرد

obeikandl.com

أصحاب الأرض الأصليين، الشعب الفلسطيني، لايرتب حقاً، ولا يفرض مشروعية، مهما كان الأمر، والانتصار لآخر أشكال الاستعمار، الاستعمار الاستيطانى الصهيونى، والادعاء بأنه يملك الحق فى فرض إرادته، لا يؤسس استقراراً، أو يحقق أمناً!.

ويحق لنا، قبل، وبعد الاطِّلاع على فصول هذا الكتاب، أن نسأل سؤالاً افتراضياً، فى هذا السياق: وماذا لو لم تقم ثورة أكتوبر، بكل إشكالاتها، وظلت روسيا الكبيرة رهينة الاستبداد القيصرى، الذى سامَ شعبها ـ لقرونٍ ـ العذاب، وأورثه السقم والبؤس ؟!.

أكان حاله سيكون أفضل؟!، وهل كان وضع العالم، سيكون أكثر أمناً واستقراراً، وقد رأينا ماحدث بعد هيمنة «القطبية» الأحادية، والانفراد الأمريكى بشؤون العالم ؟!.

لا أعتقد !

****

أما **الملحوظة الثانية** فتتعلق بمحورية موقع مصر من الخريطة الاستراتيجية للمصالح الروسية، يستوى الأمر فى ذلك خلال عقود التجربة الشيوعية، أو بعد سقوطها!.

فمنذ أن تم تدشين العلاقات المصرية السوفيتية، عام ١٩٤٣، ورغم العداء المتأصل للشيوعية، لدى البرجوازية المصرية المرتبطة بالقصر والاحتلال، فإن الكتاب يرصد مشاعر التَفَهُّم لدى جموع شعبنا: « لم يكن المصريون يعتبرون الاتحاد السوفيتى عدواً، كان العدو بالنسبة لهم هو انجلترا، وكان المنافس العربى لهم هو العراق، والتى حكمها نظامٌ ملكى، ارتبط بعلاقات وثيقة مع بريطانيا»، (ص: ٥٧).

إن مصر «هى الدولة الأكثر نفوذاً، والأضخم فى عدد السكّان، وبوابة العبور إلى العالم العربى»، (ص: ٥٦). وقد توثقت العلاقة بين الطرفين، على أرضية المنفعة المتبادلة: «فقد سعى «جمال عبد الناصر» إلى بناء دولة قوية وتسليح الجيش المصرى»، وراهن في البداية على الولايات المتحدة والغرب فى تحقيق هذا المسعى، لكنهم رفضوا تحقيق هذا الطموح المشروع لدولة فتية وزعيم بازغ، ووضعوا شروطاً للموافقة على تسليح مصر: انضمامها إلى التحالفات العسكرية، وقبولها استقبال بعثة عسكرية أمريكية.

رُفضت هذه الشروط، وكان أن اتجه «عبد الناصر» صوب الاتحاد السوفيتى، الذى ساعده على توفير احتياجاته، ودعم تنفيذ المشروع القومى الكبير: «السد العالى»، وبنى لمصر قاعدة صناعية، لازالت، حتى اليوم، وبالرغم من كل محاولات الهدم و «الخصخصة»، أساساً من أسس الدولة الراكزة.

obeikandl.com

غير أن واحدة من المآثر الكبرى للاتحاد الســوفيتى، التى تركت فى الوجدان المصرى أثراً عميقاً، كان الموقف الصلب للاتحاد الســوفيتى، إزاء العدوان الثلاثى، البريطانى - الفرنسى - الإسرائيلى، على مصر، عام ١٩٥٦، والذى هدد فيه الاتحاد السوفيتى باعتزامه استخدام القوة «لصد المعتدين وإعادة الســلام إلى الشــرق»، وقد «كان هذا الإنذار النووى الأول والوحيد مــن نوعه، فى عصر مابعد القنبلة الذرية»، (ص: ٦٠)، وبصرف النظر عما إذا كان هذا «الإنذار النووى خدعة تم التخطيط لها»، (ص: ٦٤)، أم كان تهديداً جدياً، فالمؤكد أنه كان أحد العناصر الحاسمة، إن لم يكن العنصر الحاسم، فى ردع العدوان، وهو أمر ثَمَّنَهُ الشعب المصرى، واحتفظ له بمكانة سامية فى وجدانه، وغنى له وتغنى به، بكلمات الشاعر الكبير «صلاح جاهين»:

«النجوم الحمرا سهرانة فى موسكو، زى قلب الموسكوفيين الودود، يا حبايبى ياما كان نفســى أبوســكو، وانتو واقفين جنبنا، زى الأسود ...مهرجانكم للسلام وللصداقة، ابتدا وانتم معانا ف بورسعيد، والسلاح الروسى فى إيدين الرفاقة، كل طلقة فيها كل الأناشيد . .مهرجانكم ، ابتدا يوم المظاهرة : "إرفعوا عن مصر يد المعتدين"، مصر حرة . . وح تفضل مصر حرة ، يا حبايبى ، كنتوا إنذار بولجانين»!.

وقــد تصاعدت حميمية العلاقات بين مصر "عبد الناصر" والاتحاد الســوفيتى، رغم "المطبات" والمصاعب، وخصوصاً بعدما اتجهت مصر إلى تبنى "الاشــتراكية العربية"، وصار الاتحاد السوفيتى "يعتمد على مصر فى صياغة سياســته لمنطقة الشرق الوسط "، (ص: ٧٩)، حتى أن علاقتهما لم تتأثر بمطاردة الشــيوعيين المصريين، وتعذيبهم، بل وباستشهاد العديدين منهم تحت وطاة التعذيب فى المعتقلات، وبلغت ذروة غير مسبوقة وجدت أبلغ تعبير لها فى استقبال شعب مصر لزيارة الرئيس "خروشــوف"، فى التاســع من مايو ١٩٦٤، فقد "استقبلت مصر الضيف كما لم تستقبله دولة فى العا لم، تجمعت أمواج من البشــر، وكان المشــهد مهيباً بحيث لا يمكن للضيف أن يتجاهله. كان استقبالاً صادقاً من القلب"، (ص: ٧٩).

ولم تتأثــر وتيرة هذه العلاقة، حتى بعد رحيل "خروشــوف"، وتــولى "ليونيد بريجينيف" أعِنَّة الحكم، حيث "ظل التعاون مع مصر هو عماد السياســة الســوفيتية فى منطقة الشرق الأوسط"، (ص: ٨٧)، ومعــروف طبعــا باقى التفاصيــل: دور مصر فى تكوين وقيــادة حركة عدم الانحياز، ومقاومة التكتلات والأحلاف العســكرية، ودعم حركات التحرر، والبناء الاقتصادى للدولة، ودعم القضية الفلســطينية،... ومساندة الاتحاد السوفيتى لها، وتحمل الدور الرئيسى فى إعادة بناء القوات المســلحة المصرية بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، على الرغم من طرد الرئيس "أنور السادات" للخبراء

السوفييت، وارتمائه فى أحضان الولايات المتحدة، بزعم أن ''٩٩٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا''، فى مسلكٍ جارحٍ للكبرياء السوفيتى!.

والأخطر كان الدور الذى لعبه ''السادات'' فى دعم من أسموا بـ ''المجاهدين الأفغان''، بالتعاون مع المملكة السعودية وباكستان، وبإشراف المخابرات المركزية الأمريكية، ومدهم بالمقاتلين، والمال، والسلاح، وهو ما ساعد على مضاعفة النزيف السوفيتى، وكان أحد عوامل ''الانهيار الكبير'' بعد ذلك، على نحو مايشرح الكاتب بلماحية وعمق، فى الفصل السابع: ''جراح لا تندمل''.

وقد ارتبكت العلاقة بين مصر والاتحاد السوفيتى فى أخريات عهده، بعدما تعثرت خطواته، وتضاعف هذا الارتباك بعد انهياره، وصعود ''ميخائيل جورباتشوف'' إلى موقع رئاسة الدولة بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩١، وتنصيب أول رئيس للاتحاد الروسي، ''بوريس يلتسين''، الذى امتدت ولايته من عام ١٩٩١ إلى عام ١٩٩٩، قبل أن تعود لاستعادة زخمها، بعد استقرار الأمور، فى عهد الرئيسين، الروسى ''فلاديمير بوتين''، والمصرى عبد الفتاح السيسى''، فى أعقاب عواصف التغييرات السياسية التى ضربت المنطقة عام ٢٠١١، (والتى واكبها المؤلف بالتحليل والمتابعة المُدققة)، وإزاحة جماعة ''الإخوان'' من السلطة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣، وتصاعد وتيرة الحرب ضد الإرهاب، وربما يكون فى توقيع عقد مشروع المفاعل النووى الذى سينشأ بمنطقة ''الضبعة''، أكبر شاهد على هذا المسار.

وليس بعيداً عن هذا النهج الموقف السوفيتى، ثم الروسى من بعد، فى علاقته بالدول العربية ودول المنطقة: اليمن الجنوبى، المملكة العربية السعودية، العراق، إيران، تركيا، وأفغانستان، وغيرهم: لقد تراوحت السياسة السوفيتية مع هذه البلدان، بين دواعى ''الأيديولوجيا''، ومقتضيات ''البراجماتية''، لم يعد للمثالية والفكر ''الرسالى'' من مرتكز، بعد أن رست المركب الروسى فى النهاية على شاطئ ''المصلحة''، ذلك الشاطئ الذى وصفه الكاتب ببراعة: ''المهم هنا هو معرفة ماتحتاجه روسيا من هناك (أى من دول المنطقة). والإجابة فى منتهى البساطة. نحتاج إلى تبادل تجارى، وتصدير لأسلحتنا، ومشاريع اقتصادية مشتركة، والسياحة، وجذب للاستثمارات من الإمارات إلى السوق الروسية. لا مكان للأيديولوجيا هنا''!(ص: ٢٢).

****

obeikandi.com

أما **الملحوظة الثالثة،** فتتماس مع ما أسماه المؤلف: «ســنوات التسعينيات اللعينة»، فى الفصل الحادى عشر من الكتاب.

ومصدر لعنة هذه الســنوات، هو أنها الســنوات التى واكبت انهيار الاتحاد السوفيتى، أو «الكارثة الجيوسياســية الأضخم بعد الحرب العالمية الثانية، حيث انقسمت الدولة السوفيتية السابقة العظمى، وظهرت مكانها روسيا و14 دولة جديدة»، (ص: 244).

وبتعبيرات «يفغينى بريماكوف»، وهو من هو فى المعرفة والسياسة والحكم، فى العهدين: «كانت حقبة التســعينيات ســنوات فشــل روســى. هذا أمر واضحٌ وجلى تماماً. فخلال التسعينيات فقدنا الكثير فى المجال الاقتصادى والعلمى، بل أكثر مما فقدنا أثناء الحرب العالمية الثالثة. شــهدت تلك الفترة ميلاد هياكل حكم أوليغاركية. كان من الضرورى التخلى فقط عن ســلبيات الحقبة السوفيتية، والاســتفادة بإيجابيات تلك الفترة. أما ما حدث فقد قمنا بتدمير كل شيئ تماماً»، (ص: 428).

وواكب عملية «التدمير الذاتى» التى حدثت أن تراجعت أهمية وحضور الشرق الأوسط، حتى أصبح «خارج نطاق اهتماماتنا بالكامل. كانت أولوياتنا هى علاقتنا بالولايات المتحدة الأمريكية. وكان من الواضح أن الشــرق الأوســط لم يستطع جذب اهتمام روسيا إليه، فمن ناحية لم تكن هناك حرب باردة، ومن ناحية أخرى كات روســيا تعانى من عدم اســتقرار، وكان زعمــاء روســيا حينها لا يعتقدون أن بلادهم يجب أن تلعــب دور الدولة العظمى» ، (ص: 428).

كانــت الدولة العظمى، كما يصف إ. س. إيفانــوف: «تعيش تحولات داخلية هائلة. أتحــدث هنا عن أزمــة داخلية وتحولات فوضوية. ولم يكن من الممكن ألا ينعكس ذلك على السياسة الخارجية»، (ص: 429).

كانت روسيا الجديدة تعانى عثرات الولادة، وتنهض مُجدداً، من عذابات روحها وصراعات الوجدان، مثل العنقاء، من تحت الرماد!.

ودورها المحتوم، لم يكن بمستطاع غيرها أن ينهض بأعبائه. حتى لو كان هذا الدور غير ذى «طبيعة رسالية». فليكن، إذ أنه فى غياب هذا الدور، كما يقول «ألكسندر بلوك»: «تتحرك الغيوم المرتجفة جيئة وذهاباً، ويغرق الغروب فى الدماء». ويصبح العا لم أشد ظلمة، وأكثر وَحشة،

وأقل إشراقاً ووعداً بالأمل!.

والأكثر أن روسيا نفسها لا تستطيع أن تتخلى عن هذا الدور. حتى لو أرادت، وأياً كان وضعها، وأياً كان لون الراية التى ترفرف فى سمائها: حمراء أم زرقاء!.

هذه قراءة أوَّلية لكتاب عمدة، يستحق أن يكون صدوره، فى الثقافة المصرية، حدث هذا العام!.

وأخيراً يقتضى الواجب أن أزجى الشكر الوفير للمترجم القدير، د. «محمد نصر الجبالى»، الذى منحنا ترجمةً بديعة، سلسةً وبليغةً، لهذا الكتاب المهم، فجعلت من الاطلاع على صفحاته رحلة مُشَوِّقة، ومن الصبر على قراءة سطوره الوفيرة، متعة مُيَسَّرة، ومعرفة مُقدَّرة، ودراسة مُعتبرة.

كما يوجب الإنصاف أن أحيي جهة النشر التى تحمست وقامت على عبء ترجمة، وإعداد، وإصدار هذا السفر القَيِّم: «دارنشر أنباء روسيا»، بالتعاون مع «المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم»، بإدارة الدكتور «حسين الشافعى»، التى قدّمت للقارئ المصرى والعربى والروسى، والأجنبى، نخبةً مختارةً من عيون الفكر والفن، والأدب والسياسة، والتاريخ والآثار، مترجمة إلى العربية، والروسية، والإنجليزية، خدمةً مشكورة لتفاعلٍ مطلوب وضرورى، بين ثقافتين إنسانيتين غنيتين، قدمتا للحضارة الإنسانية الكثير، ولا زالتا قادرتان على الإبداع والعطاء.

أحمد بهاء الدين شعبان

القاهرة فى: 22 يناير 2018

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة المترجم

يعتبر كتاب "من لينين إلى بوتين. روسيا في الشرق الأوسط والأدنى" ثمرة تاريخ طويل امتد لنصف قرن قضاه المؤلف في دراسة منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، وفي إجراء تقييم موضوعي وبعيد عن الأحكام المسبقة للأهداف والأساليب والوسائل التي انتهجتها موسكو في سياستها الخارجية، وما حققته من انجازات حقيقية، وكذا لحظات الفشل والخطأ في الحسابات التى ارتكبتها في تلك المنطقة من "العالم الثالث"، شديدة الأهمية بالنسبة لروسيا سواء السوفيتية أو ما بعدها. وتلك هي المرة الأولى في دراسات علم التأريخ التي يتم فيها تناول عملية اتخاذ القرارات داخل الكريملين تجاه منطقة الشرق الأوسط بالبحث والدراسة والتحليل. ويحتوي الكتاب على معلومات تنشر لأول مره حول أزمة السويس 1956م والحروب العربية الإسرائيلية عامي 1967م و1973م وحرب الخليج 1991م والتدخل السوفيتي في أفغانستان وسياسة موسكو تجاه إسرائيل. كما يتناول الكاتب بالتحليل الخطوات البرجماتية التي تنتهجها القيادة الجديدة في روسيا في إطار مكافحه الإرهاب وتدخل قوات التحالف في كل من العراق وأفغانستان وكذا تجاه "الربيع العربي" والأزمة السورية. ويثبت الكاتب بالأدلة أنه لم يعد هناك مكان لدور رسول السلام في السياسة الروسية، كما أن المكون البراجماتي أيضا في تلك السياسة ليس بلا حدود.

ويتناول كتاب "من لينين الى بوتين – روسيا في بلدان الشرق الأوسط والأدنى" استعراضا للتطور التاريخي للعلاقات بين الاتحاد السوفيتي ومن بعده روسيا والعالم العربي وتركيا وإيران وأفغانستان منذ عشرينيات القرن الماضي وحتى اليوم.

يمثل الكتاب الذي بين أيدينا أهمية كبيرة نظرا لكونه يطرح رؤية جديدة للوضع في الشرق الأوسط والأدنى لم يسبق أن تطرح في الأدبيات العربية. وترجع أهمية الكتاب أيضا إلى السمعة التى يحظى بها مؤلفة المستشرق الكبير ألكسي فاسيليف الأكاديمي الكبير وأفضل المستشرقين الروس دراية بالوضع في المنطقة وتطور العلاقات بين روسيا وبلدان العالمين العربي الإسلامي. كما أن مؤلف الكتاب يعد من المقربين من دوائر صنع القرار في روسيا خلال العقود الخمس الماضية ولذا تتسم أحكامه واستنتاجاته بالكثير من المصداقية.

ويمكـــن القول بثقة إنه لم يســبق أن تطرق أي من الباحثــين من الجانبين الى تتبع التطور التاريخي للعلاقات العربية الروسية عبر قرن من الزمان. ويرجع السبب في ذلك الى أن كثير من الوثائق والأسرار لم يتم الكشف عنها إلا منذ سنوات قليلة.

وقد جاء الكتاب في أكثر من 750 صفحة ولذا فهو يمثل مرجعًا في تاريخ العلاقات بين روسيا والشرق وهو بذلك يمثل أهمية للباحثين في التاريخ والعلوم السياسية الروس والعرب وكذا لدارسي الثقافة الروسية والمهتمين بالشأن الروسي عموما. وفي الفصل الأول يتحدث الكاتب عن جذور العلاقات بين روســيا وبلدان الشــرق الأوســط والأدنى وأســباب اهتمام روسيا بهــذا الجزء من العالم. ويتوقف المؤلف عند تطور العلاقات بــين الجانين أثناء الحرب العالمية الثانية. وفي الفصل الثاني يتتبع الكاتب تطور العلاقات في عصر خروشــوف ويكشــف عن أســرار جديدة في العلاقات بين الاتحاد السوفيتي ومصر. وفي الفصل الثالث يتناول فاسيليف العلاقات الروســية الشرق أوســطية في عصر بريجينيف في ظل بوادر انهيار الاتحاد السوفيتي. وفي الفصــل الرابع يتوقــف المؤلف عند العلاقة بين الاتحاد الســوفيتي والحركات والتنظيمات والأحزاب اليسارية والشيوعية في الشرق الأوسط والأدنى.

وفي الفصل الخامس يتناول فاســيليف العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبلدان شبه الجزيرة العربية. وفي الفصل السادس يتتبع الكاتب تطور العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبلدان الشرق الأوسط والأدنى في فترة ما بعد بريجينيف وحتى تولي جورباتشوف الحكم. وفي الفصل السابع يتوقف المؤلف عند أزمة أفغانستان والتدخل العسكري السوفيتي وهزيمة السوفيت التي عجلت بانهيار الإمبراطورية الشيوعية بالكامل.

وفي الفصــل الثامن يتحدث الكاتب فاســيليف عن تطــور العلاقات في عصر ميخائيل جورباتشــوف وانتهاء عصر الثنائية القطبيــة وبداية الهيمنة الأمريكية على العالم. وفي الفصل التاسع يتحدث الكاتب عن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وكل من فلسطين وإسرائيل ودور موسكو في التسوية الشرق أوسطية. وفي الفصل العاشر يتحدث عن غروب شمس الإمبراطورية الســوفيتية والدور الذي لعبته في اخر أيامها في أزمة الخليج. ويدور الفصل الحادي عشر عن الضعف الذي أصاب روســيا في التسعينيات، وتأثير ذلك على السياسة الخارجية الروسية في منطقة الشرق الأوسط والأدنى.

وفي الفصل الثاني عشر يتحدث فاسيليف عن بداية عودة روسيا الى المنطقة بعد استعادة قدراتها الاقتصادية ونفوذها السياســي تدريجيا. وفي الفصل الثالث عشر يتناول المؤلف ثورات

obeikandl.com

الربيع العربي وتعامل موسكو معها ورؤيته الخاصة لمستقبل هذه الثورات. وفي الفصل الرابع عشر يتحدث الكاتب عن الأزمة السورية وجذورها والجهود الروسية المبذولة لحلها. وفي الفصل الخامس عشر يتحدث عن الصراع الدائر حاليا للسيطرة والصراع على النفوذ في المنطقة والتدخل العسكري الروسي في سوريا. وأود هنا أن أشكر الزميلين محمد عمار وعادل صديق على إسهامها بترجمة فصل من فصول الكتاب الخمسة عشر.

ويكشف الكتاب عن الكثير من الأسرار ويتضمن العديد من اللقاءات الصحفية مع صناع قرار في الحكومة ومسؤولين نافذين في الخارجية الروسية.

ويعمل المؤلف عضوا في أكاديمية العلوم الروسية ورئيسا لمعهد آسيا وإفريقيا وممثلا شخصيا لرئيس الروسي لشؤون الشرق الأوسط وإفريقيا. وله العديد من الكتب والمراجع الأصيلة في تاريخ العلاقات بين روسيا والمنطقة.

وفي سبيلنا الى ترجمة الكتاب واجهنا الكثير من الصعوبات التى ترتبط باستخدام المؤلف الكثير من الاختصارات السياسية والاقتصادية القديمة والتي تعود الى 100 عام مضت وكذا التراكيب والتعبيرات اللغوية المعقدة. أضف إلى ذلك أن حجم الكتاب الذي يزيد عن 1000 صفحة وكم المعلومات الغزير واللغة الدبلوماسية التى تقتضي دقة شديدة في النقل كونها تعبر في كثير منها عن مواقف دولية وسياسات حكومية.

والكتاب هام للباحثين في الشأن الروسي والمستشرقين والعاملين في حقل السياسة الدولية والمهتمين بسياسة روسيا في الشرق الأوسط والأدنى.

وفي النهاية أتقدم بالشكر إلى دار نشر "أنباء روسيا" على إصدار هذا الكتاب باللغتين العربية والروسية في آن واحد وفي وقت قياسي حيث يمثل بلا شك إضافة كبيرة إلى المكتبة العربية والروسية ويفتح المجال أمام دراسات أخرى في نفس الموضوع.

وأتمنى أن يحقق الكتاب القصد منه وأن تنال الترجمة إعجاب القارئ الكريم،

أ.د. محمد نصر الدين الجبالي

obeikandi.com

obeikandl.com

المقدمـــــة

الجزيـــرة العربية. ظفار. محافظة تقع في جنوب غرب ســـلطنة عُمَّـــان. نقطة بعيدة في العالم العربي، تقع على حافة قارة أوراســـيا، وبعيدا عن موســـكو بآلاف الكيلومترات. كوخ في الصحراء مغطى بســـعف النخيل. وسجاجيد صغيرة مصنوعة من جلود البقر متناثرة على الأرض. وأجولـــة الحبوب تتدلى على عارضة خشـــبية كي تكـــون بمأمن من الجرذان. وبعض اللوازم الأخرى. تدخل علينا امرأة بوجه مكشـــوف بلا نقاب، وترتدي قرطًا كبيرًا في أنفها، وتحمل في يدها العشـــاء الذي يتكون من أرز مسلوق مع سمك مجفف وشاي. جمعٌ كبير من رجال الجبل المسلحين تكدسوا في المكان حتى أصبح خانقًا. لقد جاءوا ليروا الضيفين اللذين يحملان الجنســـية الروســـية، الســـوفيتية. قدمنا، أنا وهو، ضيفين على الجبهة الشعبية لتحرير المنطقة المحتلة بالخليج العربي. وكنا نمثل اللجنة الســـوفيتية لتضامن بلدان آســـيا وأفريقيا. كان أحدنا يعمل صحفيًا في صحيفة ''البرافدا''، أما الثاني فهو رجل مخابرات عســـكرية. نريد أن نرى ونفهم طبيعة هذه المنظمة وهل هي واقع أم وهم.

و ســـرعان ما انشـــغل الحضور عنا حيث اجتذب اهتمامهم، جميعًا، مرافقنا العُمَّاني ذو الأصول الأفريقية، وهو ابن احد العبيد من صلالة. كان يتحدث بشغف وبطلاقة. واختلطت لديه أبيات الشـــعر بالشعارات السياسية، وكانت كلماته تخلب العقول قبل القلوب. أخذت أستمع باهتمام:

– لقد غرقنا في مستنقع من الظلام والجهل. دفنا وجوهنا في السبخ، وولينا وجوهنا شطر حقولنا أو تجارتنا. يتملكنا الرعب من فقدان أي شـــيء، حتى ولو كان ســـجادة صغيرة من جلد البقر. أصبحنا ســـلعة تباع للرأسماليين. لســـنا عبيدًا، ولذا فقد ثرنا وانتفضنا، ونحن على أتم الاستعداد للموت.

obeikandl.com

خرجتُ من الكوخ، فإذا بها ليلة عربية دافئة، رأيتُ فيها النجوم ضخمة ومنخفضة، والقمر مكتملا. ومقاتلا شابا نائما وهو يحمل سلاحه، محتميًا بظل صخرة.

لا أدري إذا ما كان علي أن افرح أو أحزن لما رأيت وسمعت وعرفت. فلم أعد بعد ذاك الشاب الكومسومولي الرومانسي، الذي يسخر نفسه لخدمة تحقيق هدف سيطرة الشيوعية القادمة على العالم. أصبحت هناك الكثير من الأسئلة الحادة والشريرة تؤرقني: "لِمَ يتم تقبل الأفكار الشيوعية في أكثر مناطق العالم تخلفا. هنا أو في لاوس، التي زرتها منذَ فترة قريبة، مثلا؟ أما في الدول المتقدمة كالمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية فيتطلب الأمر فرض الواقع بقوة الدبابات؟ ماذا نحتاج منهم هنا أو من الشرق الأوسط والأدنى عموما؟ النفط؟ كان لدينا وقتها ما يكفينا ويفيض[1]. الموقع الاقتصادي؟ ليس لدينا ما نتبادله تجاريًا! أن نبني هنا مجتمعًا اشتراكيا، ثم نقوم بدعمهم؟ هل نكسب أم نخسر من انتشار الشيوعية؟ ومن هم "نحن"؟ الاتحاد السوفيتي؟ روسيا؟ أم قيادات الحزب؟ الطبقة المثقفة الروسية؟ أم العامل في مناجم سيبيريا؟ أو الفلاح في ريزان؟ ربما لا نحتاج، كدولة، إلى أن يحلق طيارون عسكريون أمريكان وبريطانيون في سماء الجزيرة العربية[2]، لأنه سيكون بمقدورهم التحليق بقنبلة نووية حتى يصلوا إلينا والباقي!

عام 1969م. شهد هذا العام اقتراب النفوذ السوفيتي في منطقة الشرق الأوسط من الوصول لذروته. وقليل من الناس من أدركوا أنه قد حان وقت السقوط وبسرعة من قمة الجبل. لكن في الوقت نفسه كان هناك الكثيرون بين المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط ممن يطرحون التساؤلات التالية: ما الأهداف والوسائل والأساليب التي تنتهجها السياسة السوفيتية في المنطقة؟ وهل تتفق والمصالح الوطنية للاتحاد السوفيتي؟ أم تتناقض معها؟ وما مفهوم مصطلح "المصلحة الوطنية"؟ ومن يتخذ القرارات وكيف؟ ومن ينفذها، وكيف؟ وكيف ينظر إلينا في الغرب، وفي البلدان العربية، وفي تركيا وإيران وأفغانستان؟

. . . تدفقت المياه عبر الفولجا والنيل، وعبثت الرياح بالكثبان الرملية في الربع الخالي، وأزاحتها عن أماكنها قبل بداية التسعينيات، عندما هم المؤلف بإنجاز كتابه المعنون "روسيا في الشرق الأوسط والأدنى: من سياسة رسل السلام إلى البراجماتية". لكن الاتحاد السوفيتي كان قد اختفى في تلك الفترة. وحان الوقت الآن للتحدث بصدق وبصراحة، وأن

١. هكذا بدا الأمر حينها – المؤلف.
٢. مدينة روسية جنوب موسكو.

يطـرح المؤلف من خلال هذا الكتـاب ملاحظاته وأفكاره، وما جمع مـن حقائق، ووثائق، ومقابلات صحفية.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ثار التساؤل التالي: عن أي سياسة، خارجية أو داخلية، يدور الحديث ؟

وكان الاعتراف بروسـيا بوصفها وريثا للاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن، وسرعة استبدال العلم الروسي بالسوفيتي على مباني السفارات السوفيتية السابقة مؤشرًا على شيء واحد، ألا وهو أن روسـيا التي أصبحت ترتدي عباءة سياسـية خاصة بها، ما هي إلَّا الاتحاد السوفيتي السابق. وهكذا أضحت روسـيا الاتحادية، باستثناء البلدان والشعوب التي انفصلت عنها، هي نفسـها روسـيا التي غيرت شكل كيانها السياسـي الخاص. وكانت السياسة الروسية في جوهرها سياسة سوفيتية، سواء على المستوى الإقليمي أو العالمي.

وقـد كانت البلدان العربية، وسـتبقى، جوهـر اهتمام المؤلف، إلَّا أنـه لا يمكن تجاهل سياسـة الاتحاد السوفيتي تجاه كل من تركيا وإيران وأفغانسـتان، فبدون ذلك سيبدو التناول لـدور ومكانة البلدان العربية غير مكتمل. إلَّا أنْ العلاقات بين الاتحاد السـوفيتي والبلدان الحدودية، المشار إليها، كانت بالاتساع والمتانة بحيث لم نتوقف عندها كثيراَ إلَّا للاستطرادات والتصنيفات، رغم أن هذا لا ينفي أنها احتلت مساحة أكبر في الجزء الثاني من الكتاب، وعند الحديث عن فترة ما بعد جورباتشوف.

ولا يمكـن تناول هذا الموضوع دون التعرف على أعمال الباحثين الغربيين وهم كثر. كما أنـه من غير الإنصاف التأكيد على أن أحدهم بمقدوره، وحده، الإلمام بكل ما نشـر حول الموضوع. ففي الحقبة السـوفيتية تنامى الاهتمام بالشرق الأوسط والأدنى، وصدرت العشرات من الكتب التي تتناول السياسـة السـوفيتية تجاه المنطقة. وكان الباحثون الغربيون على دراية واسـعة بالمصادر المراجع السوفيتية المنشـورة. وأحيانًا اتسمت أعمالهم وكتاباتهم بكونها أكثر اكتمـالا وصراحة من نظيرتها السـوفيتية. فعلى سـبيل المثال لم أقرأ لـدى أي من الكتاب السـوفيت في حينها عن القلق الذي سـيطر على قوات الإنزال السوفيتية أثناء الحرب العربية الإسرائيلية في عام 1973م.

إلَّا أنه، ورغم نقاط قوتهم تلك، كان الباحثون الغربيون، مثلهم مثل نظرائهم السـوفيت، يتورطون في أدلجة أبحاثهم ودراساتهم، مستفيدين من معادله ''اللعبة ذات النتيجه الصفرية''.

obeikandl.com

أي أنه في المناطق التي كان الاتحاد السوفيتي عادة ما يفوز فيها أصبحت الولايات المتحدة تفوز والعكس. ولو تطلب الأمر إخضاع الحقائق لهذه المعادلة. فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي انخفض القلق من السياسة الروسية في المنطقة إلى الصفر تقريبًا، وما لبث أن تزايد مرة أخرى في بداية القرن الحادي والعشرين. فقد كانت فكرة الأدلجة، وإصباغ صفة رسول وداعية السلام والعدل على سياسة الدول، تسيطر على كتابات معظم المؤلفين الغربيين، رغم وجود بعض الإستثناءات التي سنوردها في متن النص.

وفي التسعينيات طرح المؤلف مسألة معقدة وطموحة، أملًا منه في تحقيق نجاح ولو جزئي في حلها، من شأنه أن يسمح بإلقاء الضوء بشكل جديد على السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط والأدنى. كان الحديث الدائر عن محاولة إيجاد نقاط التقاء بين مستويات مختلفة للحقيقة، أو على الأقل أخذها بعين الاعتبار دائمًا عند القيام بأي تحليل.

يتمثل المستوى الأول في: الوضع السياسي والاجتماعي الحقيقي في الشرق الأوسط والأدنى والذي ساهم في بلورته القائمون على السياسة الخارجية السوفيتية.

أما المستوى الثاني، والذي يخضع لقوانينه الخاصة في الأداء، فيتمثل في الهياكل والمؤسسات السياسية والبيروقراطية، المرتبطة بمفهوم السياسة الخارجية، والتي تتمتع بتنظيم أيديولوجي محدد.

أما الثالث، فيتمثل في الجانب الأقل دراسة، وهو البشر أنفسهم بمعارفهم وجهلهم وذكائهم وغبائهم وشجاعتهم وجبنهم.

وبطبيعة الحال فإنَّ المستوى الرابع من الحقيقة يتمثل في المؤلف نفسه، الذي شاءت الأقدار أن ترتبط حياته بدراسة تلك المنطقة، وأن يكون شاهدًا سابقًا على الأحداث، (ومشاركا فيها في حالات نادرة)، ونقصد هنا موقفه وتسلسل أفكاره وخبرته ومعارفه، وربمَّا أخطاؤه في التقدير أيضًا.

وكحال أي مؤرخ، يعمل المؤلف مع الأثار والشواهد التاريخية في السياسة، أي مع الوثائق والإعلانات والتصريحات والأحاديث والبروتوكولات والاتفاقيات. إلَّا أنْ معظم الموجود في الأرشيفات الرئيسة بوزارة الخارجية والجهات التابعة لها كان ممنوعًا على الباحثين. وقد قام المؤلف بعمل لقاءات صحفية مع العديد من رجال الدولة في العهود السابقة بوصفهم أحد

مســتويات الحقيقة، وكذا لقاءات مع بعض ممن تبقوا في الســلطة، والذين وافقوا على عقد لقاءات مماثلة.

قادني بحثي هذا إلى شقة صغيرة من غرفتين تقع بالقرب من محطة مترو ''إيربورت''، حيث يقطن الســيد د. ت. شيبيلوف صاحب الستة والثمانين عامًا، والذي سلم التحذير النووي الصاروخي الشهير، في الخامس من نوفمبر عام 1956م، إلى سفراء كل من بريطانيا وفرنسا وإســرائيل، والذي كانت لديه فرصه تقلد موقع قيادي في الاتحاد السوفيتي، ولكنه فوتها على نفسه. و ربمًا كان لقائي به آخر اللقاءات الصحفية التي أجراها في حياته.

كما حظيت باســتقبال من الســيد ''إدوارد شــيفرنادزه'' في القصر الصغير التابع لهيئة السياســة الخارجية، الواقع بشارع يليزاروفا بالقرب من محطة كورسك، والذي رمم للتو. وكان الســيد شــيفرنادزه قد تقدم باســتقالته من منصب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي في لحظة دراماتيكية وكان ذلك في نهاية التســعينيات. ثم تولى رئاسة الهيئة، وبعدها استقال من الحزب الشيوعي الســوفيتي، وأصبح واحدًا من قادة حركة الإصلاح الديمقراطي. وفي عام 1992م عــاد إلى جورجيا، وتولى رئاســة مجلس الدولة هناك. وفي نهاية العام اختير رئيســا للمجلس الأعلى الجورجي ثم رئيسا لجورجيا.

كما حصلت على لقاء صحفي مماثل مع الســيد أ. زاسوخوف، وهو الشيخ الهرم الذي كان الرئيس الفعلي للجنة الســوفيتية لتضامن بلدان آسيا وأفريقيا، ثم سفيرا للاتحاد السوفيتي في سوريا، ثم رئيسا للجنة المجلس الأعلى في الاتحاد السوفيتي للشؤون الدولية، وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، وبعدها، بعدة سنوات، رئيسا لجمهورية أوسيتيا الشمالية، ثم نائبًــا في مجلس الاتحاد. وقد جرى اللقــاء في قصر صغير تابع للجنة التضامن بالقرب من بريتشيستينكو (كروبوتينسكايا سابقا).

كما كان هناك لقاء أيضًا جرى في الميدان القديم مع الســيد ب. بونوماريوف المرشــح الأســبق، وعضو المكتب السياســي في اللجنة المركزية للحزب الشــيوعي السوفيتي. ثم ترأس لســنوات عديدة قسم الشــؤون الدولية التابع للجنة المركزية. وبعد أن تم إبعاده عن اللجنة، ونظرًا لأنه لا يســتطيع الابتعاد عن العمل الحــزبي ومكتبه الخاص، فقد قضى فتره طويلة في المكان يفرز الأوراق غير الهامة، ويجمع الوثائق التي اعتمد عليها في تأليف كتاب لا يهم أحدًا عن تاريخ الحزب الشــيوعي. وكان الوحيد بين الضيوف الذي منعني من اســتخدام المسجل

obeikandl.com

أو حتى تدوين الملاحظات أثناء الحوار. وكان الحوار معه الأقل وفرة في المعلومات والمضمون، واضطر المؤلف إلى تدوين ما يتذكره من الحوار بمجرد عودته إلى منزله.

كما كان هناك حوار طويل بين المؤلف وبين مساعد ب. بوناماريوف السيد ر. أوليانوفسك في شقته الواقعة بشارع ألكسي تولستوي (سبيريدونوفكا حاليًا). ويعتبر من بين المضطهدين الذين أعيد لهم اعتبارهم في الثلاثينيات، والوحيد الذي استطاع بعد عام 1956م الارتقاء إلى أرفع المناصب، حيث تولى وظيفة مساعد رئيس قسم الشؤون الدولية باللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي. ويتميز من الناحية الإنسانية بكونه شخص لطيف المعشر عاش حياته مؤمنا بتلك الأساطير، وظل يدافع عنها ويدعو إليها، وشارك جزئيًا في صناعتها حتى أضحى الآن يراقب، بعيون تعجز عن الفهم، كيف انهار كل ما كان يبدو له في وقت ما راسخًا ثابتًا.

وفي شارع ستانيسلاف، وحيث يقطن ممثلو الصف الأول من النخبة السوفيتية السابقة، التقيت مع السيد ن. يجوريتشيف، الذي كان يشغل في السبعينيات منصب سكرتير اللجنة الفرعية بالحزب الشيوعي السوفيتي في مدينة موسكو، وكان نجمه السياسي في تصاعد، ونظر إليه بوصفه أحد القادة السوفيت المحتملين، والذي خسر في صدامه لاحقا مع ليونيد بريجينيف. كان الوقت يختلف عن حقبة ستالين الذي كان يتخلص من منافسيه بالقتل. تم التخلص من يجوريتشيف ”بالنفي“ إلى الدانمارك، ليعمل سفيرا هناك، وعندما تولت إدارة الرئيس جورباتشوف أوفدته سفيراً إلى أفغانستان، في فتره انسحاب القوات السوفيتية منها.

كما وافق على إجراء لقاءات صحفية الكثير من السفراء والعاملين في الحقل الدبلوماسي، والأعضاء السابقين في القسم الدولي باللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، وفي إدراة المخابرات العامة، ولجنة الأمن القومي (هيئة الاستخبارات الخارجية حاليا)، والهيئات الاقتصادية الخارجية.

(وسوف يتم استخدام مصطلحي ”دبلوماسي“ و”موظف بالقسم الدولي باللجنة المركزية“ كمترادفين يعادلان المصطلح الصحفي المستخدم الشهير ”مصدر معلومات مطلع“). وهناك من لم يعارض نشر اسمه، وهناك من فضل أن يبقى مجهولًا (السبب الرئيس الحرص على الوظيفة، وهم الأكثرية) وهو ما أثر سلبًا بالطبع على قيمة الكتاب. ويعلن المؤلف بوضوح قاطع أنه عندما يقتبس مقولات لأشخاص مجهولين فإنه يلتزم، حرفيًا، بما

obeikandi.com

قالوه دون إضافة أو نقصان، وفي بعض الأحيان رأي المؤلف، في هؤلاء، مصادر أكثر ثقة من غيرهم ، الذين صرحوا بأسمائهم علنا.

و قد ساعد على الارتقاء بجودة العمل ما قدمه كل من: الدكتورة إيرينا أبراموفا، والدكتور أوليج ليفين، أثناء فترة دراستيهما للدكتوراة تحت إشرافي. وقد أصبحت الأولى عالمة كبيرة وصاحبة نظريات، وفي عام 2015 م حلت محل المؤلف في منصب مدير معهد أفريقيا بأكاديمية العلوم الروسية. أما الثاني: فقد أصبح دبلوماسيًا جادًّا، وسافر عام 2015 للعمل وزيرًا مفوضًا بالسفارة الروسية في الأردن.

مَـرَّ بعدها مـا يقرب من ربع قرن، وأصبح عنوان الكتاب ''من لينين وحتى بوتين'' في إصداره الجديد، ويغطي مساحة قرن من الزمان تقريبا، بعد ضم فترة ما بعد جورباتشوف. وتطلب الأمر تحديث المادة القديمة، على الرغم من احتفاظ التقديرات الواردة بها بقيمتها ودقتها، فيما مثلت فترة ما بعد جورباتشوف الجزء الثاني من الكتاب، ''حدود البراجماتية''. وقد أتاحت ليّ الزيارات المتواصلة إلى بلدان المنطقة، واللقاءات مع الزملاء الغربيين، أن استشعر جيدًا نبض تلك السنوات. ولذا فقد قررت إضافة بعضًا من انطباعاتي في مقدمة الكتاب.

. . . **واشنطن. يناير 2011م**. لقاء بين مجموعة من المستشرقين الروس والعلماء الأمريكيين. القنوات التليفزيونية عامره ببرامج التوك شو عالية المشاهدة حول الثورات العربية. ومراسل صحفي أمريكي يقف في ميدان التحرير، مركز الأحداث العاصفة في مصر، ويتحدث بكلمات صيغت بإتقان، قائلًا: ''المتظاهرون هنا لا يعبرون عن أي مشاعر معادية لأمريكا''. فيما تشاهد في الخلفية لافتة كبيرة، كتب عليها بالعربية ''ارحل. ارحل'' وحينها توصل العلماء الروس إلى النتيجة وقالوا: انتهى الأمر! وتحدثوا عن النمو المتوقع لنفوذ التيارات الإسلامية في العالم العربي. ولم يعلق الزملاء الأمريكان بشيء وفضلوا الصمت.

. . . **ميدان التحرير. القاهرة. فبراير 2011م**. مبارك يتنحى عن السلطة. والكاتب العربي الشهير، وربما الأفضل في العالم العربي، جمال الغيطاني لا يخفي مشاعره ويقول: '' قبل أسبوع تقريبا من 25 يناير كنت مدعوا في حفل استقبال بالقصر الرئاسي بمناسبة الاحتفال بتوزيع قلادة النيل، وهو أرفع الأوسمة في مصر. شعرت بصدمة عندما شاهدت في الفناء الرئاسي الخدم والمراسم وطابور المنافقين والمتملقين. بدا ليّ كل شيء ميتا ويائسا.

سألت نفسي. هل سيستمر ذلك الوضع طويلا؟ سمعت يوم 24 يناير أن هناك دعوات عبر الانترنت لتنظيم مظاهرة شبابية. ولكن نظرًا لكوني انتمي للجيل القديم فلم أصدق ولم أثق بنجاح الانترنت في ذلك. وفجأة نجح الأمر! يا ألكسي! تم الأمر! وحدت الثورة بين الجميع؛ المسلمين والأقباط، الأغنياء والفقراء، المثقفين والأميين. كانت تلك هبة وطنية عامة فلتكن هناك صعوبات ومعاناة وضحايا! لكن النظام القديم الميت لن يعود!"

"صديقي العزيز المخلص الشريف الموهوب، بلا حدود؛ لكم وددت أن أصدقك! لكم وددت أن أؤمن بمستقبل ناصع لمصر التي اعشقها. لكني قادم من بلد عانى الكثير من الثورات والثورات المضادة، عبر قرن من الزمان! وبكل حزن وأسف انظر الآن إلى ما آل إليه الوضع في بلدي. ". . لم أقل تلك الكلمات له حتى لا أؤلم مشاعره.

أصبحت كلمة التحرير أيقونة للثورة المصرية، ورمزًا للثبات والشجاعة والحرية. ثمانية عشر يومًا متواصلة، كان الميدان فيها يموج بالحماس، والخطب الثورية، والنقاشات، والشعر، والأغاني، والاشتباكات مع الشرطة والبلطجية المستأجرين من قبلها، وحتى مع سائقي الجمال. كانت كلمة "ارحل" تخرج من حناجر الملايين، موجهة إلى الرئيس مبارك. اختفت الشرطة حينها. ووقفت الدبابات في محيط الميدان والشوارع الضيقة المحيطة. لم يتدخل الجيش في الأحداث. تنحى الرئيس مبارك. وماذا بعد؟ عاشت مصر بعدها أوقاتًا صعبة.

طرحت على نفسي سؤالا قديمًا: "ماذا علينا، في روسيا، أن نفعل؟" وداهمتني إجابة واحدة: "المهم عدم التدخل في أي شؤون مصرية أو عربية!"

لم ننجح في تحقيق ذلك.

و تسعى روسيا في القرن الحادي والعشرين إلى العودة إلى الشرق الأوسط. وشاءت الأقدار أن يكون ذلك عبر البوابة السورية.

. . . **دمشق. أبريل 2016م**. أثناء حوار ليّ مع السفير الروسي الكسندر الكسندرفيتش كينشاك بمكتبه. وبين وقت وآخر نسمع صوت إطلاق نار من مدفعية ثقيلة. قال السفير وهو يشرح لي ما يدور هناك: "يضربون أهدافا في ضواحي دمشق، على بعد خمسة كيلومترات تقريبًا، سبعة كيلومترات من هنا. حيث يسيطر المقاتلون، أو قوات داعش، أو جبهة النصرة، على الأحياء في تلك المناطق. ويحاصر الجيش هذه الأحياء بما تبقى فيها من سكان".

– هل ليّ أن أصل إلى الجبهة؟

– لا. فأنا مسؤول عن أمنكم. ولا يمكنكم التنقل في المدينة إلاَّ في سيارة السفارة فهي مدرعة وآمنة.

عند الحدود السورية اللبنانية استقبلتنى عناصر من القوات الروسية الخاصة بصحبة سيارتين مدرعتين. وكانوا جميعًا يرتدون زيا أسود، ويحملون الأسلحة الآلية وأجهزة لاسلكي. أقلوني إلى فندق في وسط العاصمة دمشق، ثم ذهبت، حسب الاتفاق، في إحدى السيارتين إلى السفارة، والتي يحيط بها سياجان أمنيان: سوري خارجي، وروسي في الداخل. أمَّا الممرات والمداخل فهي بين جدران عالية من الخرسانة المسلحة. وتم غلق الشارع أمام السفارة أمام حركة المرور. وتم استخدام السيارة المدرعة في تنقلاتي في المدينة، وأثناء لقاءاتي وزياراتي للجامعة.

ما العمل. النظام هو النظام. الفضول يقتلني. استقللت تاكسيا، ووافق السائق في مقابل بعض المال أن يذهب بي إلى محطة الباصات، والتي يمكن منها السفر إلى مدينة الرقة عاصمة مقاتلي داعش. (أي أن الحافلة تمر عبر جبهة الحرب الأهلية). ورأيت هناك كافيتيريا مزدحمة بالناس، وحواري المدينة القديمة الصاخبة، ثم أقلني التاكسي إلى مواقع الجيش السوري، حيث كانوا يغلقون طريق المرور إلى مخيم اليرموك الفلسطيني سابقًا. والمخيم ليس خيامًا، بل أحياء قديمة ضمن مدينة دمشق الكبرى. وبعد القتال الذي اندلع بين تنظيمين إسلاميين تمكنت داعش من السيطرة على جزء من المخيم، فيما احتلت جبهة النصره جزءًا آخر. وهناك أحياء أصبحت خاوية تمامًا من البشر، واستخدم المقاتلون الأنفاق بهدف التستر والاختباء.

أمسك الضابط الشاب بجواز سفري وتصفحه سريعًا، وبعد حديث طويل، ومحاولات منى لإقناعه، واتصالات هنا وهناك، وافق أخيراً على اصطحابي إلى نقطة مراقبة. ''بشرط ألا تتحرك ولو خطوة دون موافقة منيّ. هناك قناصة يقفون على الجهة الأخرى. " أجبته قائلًا: "حاضر. ‘‘

سرنا في خندق عميق وعبرنا إلى منزل غير مأهول، ومن داخله وبالاستعانة بالمنظار تمكنا من مراقبة المنطقة التي يسيطر عليها المقاتلون من خلف جدران البيت. رأيت مساحة فضاء مفتوحة، ومحاطة من جميع الجوانب بمنازل شبه مهدمة، وبقايا حطام سيارات متفجرة. ''نحن نقوم بالمراقبة، وإذا لاحظنا أي حركة؛ نرسل الإحداثيات إلى قوات المدفعية فيستهدفون

obeikandi.com

الموقع المحدد. ‘‘ لم يسمحوا ليّ بالبقاء طويلا. وكرر ليّ الضابط أثناء وداعه لي عبارات الشكر والامتنان لروسيا، وردد كلمة بكلمة، تقريبا، ما قاله الرئيس السوري بشار الأسد في خطابه الأخير. من الواضح أن القائمين على التوجيه السياسي في الجيش السوري يقومون بعملهم على الوجه الأكمل.

كانت سوريا ساحة أظهرت من خلالها روسيا إمكاناتها وقدراتها العسكرية للمرة الأولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وقد أثارت زيارتي لها الكثير من التساؤلات لدي، سواء حول هذا البلد أو حول منطقتي الشرق الأوسط والأدنى قاطبة. وسأحاول الإجابة على بعض منها في الجزء الثاني من الكتاب، والذي يحمل عنوان ’’حدود البراجماتية‘‘.

و اسمحوا ليّ أن أخرق قليلًا التسلسل التاريخي للأحداث، وأتطرق إلى زيارتي إلى الإمارات العربية المتحدة في ديسمبر عام 2015م. فقد كان هذا البلد تحديدًا مع عُمَّان يمثل هدفًا ساميًا للثوار في ظفار، والذين كانوا يأملون في تأسيس ’’مجتمع اشتراكي سعيد‘‘ في هذه المنطقة.

. . . **الجزيرة العربية. ديسمبر 2015م**. ارتفع المصعد بلا ضجيج يذكر إلى الطابق الحادي والستين بعد المئة في أعلى ناطحة سحاب في العالم، وهي برج خليفة. ويحتوي المبنى على مئتي طابق، بإجمالي ارتفاعات تبلغ 828 مترا. ويمكنك الاستمتاع من أعلي البرج بالنظر إلى جمع كبير من ناطحات السحاب ’’القصيرة‘‘، والتي يبلغ ارتفاعها، في المتوسط من 60 إلى 70 طابقا. شبكات الطرق ذات المستويات المختلفة لتوزيع التدفقات المرورية على الطرق السريعة. وتنظر إلى الشرق فترى البحر، وإلى الغرب فتجد الصحراء. هناك كانت تقبع كهوف طينية فقيرة يقطنها الصيادون، وخيام للبدو، عندما قدمت أول مرة في عام 1969م، وكنت حينها أول سوفيتي، أو ربَّما أول روسي في التاريخ، يزور الإمارات العربية المتحدة بعد إعلان استقلالها مباشرة.

و يمكنك التنقل بين طوابق البرج، الذي ربما يعتبر أول مدينة عمودية في العالم، تستطيع استيعاب ما يزيد عن خمسة وثلاثين ألف إنسان. يحتوي البرج على شقق، وفنادق، ومكاتب، ومطاعم، ومحال تجارية، وجميع الخدمات المعيشية الضرورية. ويمكنك الهبوط إلى شرفة الفندق في الأسفل، والاستمتاع بغروب الشمس، والاستمتاع، في نفس الوقت، بتراقص النوافير أمام البرج على أنغام الموسيقى العربية، وموسيقى الجاز، على بحيرة صناعية وردية اللون. كما

obeikandi.com

يمكنــك الاســتمتاع بالتجول بين صفوف لا تنتهي من المحــال التجارية بمختلف أحجامها. ويمكنك أيضا أن تجلس على مقهى وتطالع الصحف الروســية، وكذا الصحف المحلية، كبيرة الحجم، باللغتين العربية والإنجليزية. وفي الفندق يمكنك في المساء أن تشغل التليفزيون، وتختار واحدة من مئات القنوات. وتجد نفسك وقد غرقت في بحر من المعلومات الحقيقية (والكاذبة)، وطوفان من الإعلانات عن سيارات، ومجوهرات، وأحذية، وساعات، وعطور، ومعارض فنية، وحفلات موسيقية، ورحلات، وكل ما يمكن بيعه.

لا. لا يمكني، وأنا في هذا العمر، أن أتصرف كشــاب رومانسي في السابعة عشرة. لكن النفس أمارة بالسوء دومًا، وخاصة عندما تشاهد إعلانا عن وجبة عشاء لفردين، تبلغ قيمتها 600 ألف دولار، في مدينتين على طرفي العالم. ادفع وســتحصل على خدمة "شــاملة كل شيء": الطيران لفردين على الدرجة الأولى، وربما بطائرة خاصة، تطير بك إلى الطرف الأخر من العالم، وغرفة في فندق، والمشروبات والطعام. وغير بعيد من هنا، وفي اليمن المجاور، يعتبر محظوظًــا من يعيش في كوخ، ولديه بعض الحبوب في جوال مرفوع ومربوط بحبل على عارضة خشــبية، حتى لا تلتهمه القوارض. الكثيرون هناك يعانون من نقص المياه والطعام، وكثيراً ما ينام الأطفال دون عشاء، وهم عراة، والذباب يغطي وجوههم .

و هــا هــو خبر عن مبــاراة للهوكي بين فريق الــروس المقيمين بالإمــارات مع نظرائهم الســويديين. لاحظت وجود أحذية التزلج في الصندوق الخلفي لسيارة أحد الموظفين الشباب العاملين في القنصلية العامة الروسية. وقد شرح لي لاحقًا أنه يمارس رياضة الهوكي طوال العام، ويلعب ضمن منتخب الجالية الروســية، وهناك عشــرات الفرق المنافسة لهم. وهكذا وتحت درجة حرارة تتراوح بين 45 و48 درجة مئوية توفر قصور الجليد الإمكانية للتدريب وممارسة هذه الرياضة. ما العجب في ذلك؟ فالإمارات لديها محطات مترو فوق الأرض مكيفة الهواء، وكذا جبال ثلجية صناعية لممارسة التزحلق على الجليد.

وفي عام 2014م زار الإمارات حوالي ســتمئة ألف روســي، أنفقوا 1. 2 مليار دولار، وانخفــض الرقم قليلًا في العام التالي، 2015م. وأغلب هؤلاء من الســياح ورجال الأعمال والوزراء. ليس هؤلاء فحسب فقد سمعت بنفسي في أحد الفنادق الفاخرة صوت رجال روس يصيحون ضحكًا بصوت عال وبلغة روســية، وعندما ســألت أخبرني النادل أنهم من كبار رجال المافيا النافذين في روســيا. فهنا لا أحد يحاســبهم، وهم أيضا لا يمســون أحدًا بسوء. ولكنهم، ببساطة، زبائن أسخياء جدًا"

و في إمارة الشارقة قامت إحدى العائلات بتشييد وإنارة كنيسة القديس فيليب. هناك من يأتي هنا ليستشعر الهدوء وبرودة الجو في الكنيسة الأرثوذكسية الوحيدة في الجزيرة العربية، وهناك من يزورها ليعترف بذنوبه ويغتسل منها.

و قد انتهى لتوه في الإمارات معرض بيع المعدات العسكرية، ويحمل اسم ''دبي إير شو 2015''. وقد مثلت روسيا في المعرض خمس وعشرون شركة، قامت بعرض أكثر من مئتي نموذج لتقنيات عسكرية حديثة، بداية من المقاتلات متعددة المهام، حتى أنظمة المراقبة والاتصال. ولم يقتصر نشاط المعرض على البيع فحسب، بل قامت شركة ''روستيخ'' بتأسيس شركة بالتعاون مع الشركة القابضة الإماراتية ''توازن''، وذلك لإنتاج الذخيرة بما فيها للدبابات القتالية بي إم بي 3.

و قد شاركت في الإمارات في المؤتمر الدولي للأمن في منطقة الخليج العربي، والذي قام بتنظيمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. وقد شارك في المؤتمر أكثر من 300 ضيفٍ من مختلف الجنسيات. واتسمت مشاركاتهم بالجدية. وتناولت المداخلات أكثر القضايا الملحة سواء الاجتماعية أو الأمنية أو الاقتصادية أو الدينية. وقد أهداني مدير المركز السيد جمال سند السويدي كتابه، والذي يحمل عنوان ''من القبيلة وحتى الفيس بوك: وسائل التواصل الاجتماعي ودورها في التحولات المستقبلية''.

وتتميز الإمارات، وجيرانها قطر والكويت، بظاهرة فريدة، وهي قلة عدد السكان الأصليين، والذين انهالت عليهم ثروات نفطية ضخمة. وقد استطاع القادة الذين توارثوا تلك البلاد من الاستفادة بشكل عاقل من هذه الثروات. واجتذبوا في سبيل ذلك أفضل الأيدي العاملة الأجنبية، وأقلها كلفة. وتبلغ نسبتهم في الإمارات أكثر بعشر أضعاف من عدد المواطنين الإماراتيين المحليين.

و لكن ليست تلك هي القضية. فالمهم هنا هو معرفة ما تحتاجه روسيا من هناك. والإجابة في منتهى البساطة. نحتاج إلى تبادل تجاري، وتصدير لأسلحتنا، ومشاريع اقتصادية مشتركة، والسياحة، وجذب للاستثمارات من الإمارات إلى السوق الروسية. لا مكان للأيدولوجيا هنا. بالتأكيد تهتم روسيا باستقرار منطقة الخليج، على الرغم من الحاجة إلى تناول من نوع خاص للرؤية الروسية لمعايير تحقيق هذا الاستقرار.

obeikandi.com

و في أثنـــاء عملي علـــى إنجاز الجزء الثاني من هذا الكتاب، أدركت أن كثيراً من أســـرار وآليات اتخاذ القرارات في فترة ما بعد جورباتشـــوف تبقى عســـيرة على الفهم. وأصبح العثور عليها أكثر صعوبة مما قبل، حين كان رجال الدول الســـوفيت يسمحون لأنفسهم بالحديث بصراحة أكثر. أمَّا الدبلوماســـيون الحاليون، وكذا رجال المخابرات، فإنهم يتحفظون كثيرا في الحديث حتى تحت أسماء مستعارة.

ولذا لا يمكنني ألا أذكر بامتنان الحوارات التي اتسمت بثراء المضمون، وساعدتني في فهم الكثـــير من الأمور. وجرى أحدها في مبنى الغرف التجارية والصناعية، وآخر في مكتب بمركز التجارة الدولية مع الســـيد يفجيني مكســـيموفيتش بريماكوف. وهو زميل سابق أثناء عملي بصحيفة البرافدا، وأكاديمي، وعالم سياسة، واقتصادي، وكاتب اجتماعي، عمل رئيسًا لجهاز المخابرات، ثم وزيرا للخارجية، ثم رئيســـا للحكومة الروســـية. وبعد أن قام بوريس يلتســـين، بتحريض مـــن أفراد عائلته الأثرياء، بإقالته، عمل بريماكوف لســـنوات طويلة رئيســـا لاتحاد الغرف التجارية والصناعية. وقد حضرت الاحتفال ببلوغه الثمانين ضمن ”دائرة ضيقة“ من الضيوف بلغت المئتين، وكان الرئيس بوتين حاضرا، ووصف بريماكوف بأنه ”مواطن عظيم“. ثم نطق بالعبارات التالية تقريبا: "في السنوات التي كانت فيها روسيا على حافة الانهيار التام، ظهر رجال من نوعية بريماكوف، أنقذوها في اللحظة الأخيرة. “ ثم قاما سويا بغناء أغنية عن لينينجراد؛ ” المدينة التي تعلو النهر المتدفق. “

كما التقيت، في حوارات عديدة، مع إيجور ايفانوف وزير الخارجية الأســـبق، وســـكرتير مجلس الأمن الروسي. وجرت لقاءاتنا في شارع ماليا ياكيمانكا، في مكتبه بمركز المجلس الروسي للشؤون الدولية والذي قام بتأسيسه.

وقد ساعدني السيد يو. شافرانك، وزير الطاقة والوقود، والرئيس الحالي لمجلس اتحاد منتجي النفط والغاز في روسيا كثيراً في فهم دور الطاقة في السياسة الخارجية الروسية.

و رغم تقاعده ومرضه الشديد، إلا أن السيد أ. كوليك، الرئيس الأسبق لفرع الاستخبارات الروسية في الشرق الأوسط، قد احتفظ بذاكرته القوية اليقظة، وأرائه، وحتى اتصالاته وعلاقاته. واتسم حديثنا بالصراحة. ويعد من القليلين الذين ظلوا يقطنون في شقة من عصر خروشوف، ولم ينتقل إلى مكان أرحب وأكثر رقيا ويليق بمكانته كلواء في الإدارة الرئيســـة لجهاز كي جي بي.

obeikandl.com

و لم يعترض صديقي القديم الدمث، رافايل عين الدين، على إجراء حوار معه، ويشغل منصب رئيس الإدارة الروحية لمسلمي الجزء الأوروبي من روسيا، ورئيس مجلس الإفتاء الروسي. وقد استقبلني بمكتبه المقابل للمسجد الجامع بمدينة موسكو، والذي يعد تحفة معمارية. وبالقرب منه تقع الكنائس الأرثوذكسية والمجمع الكنسي الأرمني والملعب الأولمبي، ما يعتبر رمزاً دالًا على آمالنا وأحلامنا جميعًا كمواطنين روس في التعاون والتلاحم. ربما لا ينقص المكان فقط سوى معبد يهودي وآخر بوذي.

و قد انتهيت من الفصول التي تتناول العلاقات الروسية المصرية قبل عام 2011م، واستفدت فيها من نتائج رسالة دكتوراة، قام بها نائب وزير الخارجية وسفيرنا الأسبق في القاهرة ميخائيل بوجدانوف، وكان للمؤلف شرف الإشراف على هذه الرسالة.

كما شاركني، فعليًا، في طرح الكثير من الآراء، السيد ب. ستيجني، السفير الأسبق في الكويت وتركيا وإسرائيل، وهو عالم ومؤرخ وعمل "كدبلوماسي" مستعار في الجزء الأول من الكتاب، حيث تنسب معظم المقالات إليه تحديدًا.

و قد وافق زميلي السابق في صحيفة "البرافدا"، ثم في مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، والعقيد بالإدارة الرئيسة لجهاز كي جي بي، ي. روساكوف، على تحرير الجزء الأول من الكتاب. ليس هذا فحسب بل منحنى لقاءًا صحفيًا بشخصيته الحقيقة، وساعدني في إلقاء نظرة على الأحداث من وجهه النظر الأمريكية".

كما شارك زملائي المستشرقون، أ. كوروتايف، ول. ايسايف، وأ. تكاتشينكو، ون. فيلين، ول. رافاندي فادان، وأ. خودونوف، والقنصل العام الأسبق في اسطنبول، ل. مانجوسين، في مناقشة مقتطفات بعينها في الكتاب، وأمدوا المؤلف بالحقائق والأحداث. وبذل السيد أوليج تيتيرين، نائب المؤلف في رئاسة مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، الكثير من الوقت والجهد في تحرير الجزء الثاني من الكتاب.

و قد ساهم مساعد المؤلف، س. تشوكانوف، بجهد كبير في جمع المادة الضخمة من الحقائق والوقائع الضرورية لوضع الكتاب. كما تعهد بالمراسلات باللغات الروسية والإنجليزية والعربية. لا أجد ما يكفي من عبارات الشكر والامتنان، حتى أوفيه حقه وجهده الدؤوب، والذي يمنعه من مواصلته إلَّا موته إثر مرض خطير.

obeikandl.com

قام بترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية س. كوســتيليانيتس، والذي قام أثناء عمله بتدقيق الصياغة والحقائق الواردة بالنص الروســي. أمــا الترجمة إلى العربية فقام بها محمد نصر الجبالي أستاذ اللغة الروسية وآدابها بجامعة عين شمس. وبالطبع لا يمكن تجاهل العمل الدءوب والمتفاني الذي تقوم به مســاعدتي س. بولينينا، وهي الوحيدة التي اســتطاعت فك طلاسم الخط مع الإملاء السريع. وبدونها لم يكن هذا الكتاب ليظهر للنور.

و هكــذا يمكــن القول بأن هذا الكتاب هو نتاج لجهد جماعي. وإذا كان لكل مشــارك سواء من الضيوف أو الزملاء أو المعاونين الحق في اقتسام المزايا، فإن كل النواقص والهنات لا يتحملها سوى المؤلف وحده.

obeikandl.com